## الفصل الثالث  والثلاثون

## سمعان الناطور

حين عاد أحمد الى غرفته وهو يضرب أخماسا بأسداس، شـاهد سـمعان الناطور قد جيء به الى المستشفى وفي غرفته بالذات، وكان يتأوه مـن الألـم فسأله أحمد عما ألم به، فأخبره بأن جروحه التهبت، وأن حماه ارتفعت..

وكان أحمد كعادته، يعامل كل فرد معاملته الطيبة، ويرفع مـن معنوياتـه بالمزاح والنكت، وكان يرفض تناول حصته من المسكنات، ويعطيها لمن هـم بحاجة أكبر اليها، وخصوصا لسمعان الذي كان يبالغ بالشكوى من آلامه مرفقة بالشتائم ضد العهد..

قال يوما محتجا:

-حرموني الصلاة في الجامع وراء الإمام.. حـرمهم الله العافيـة.. قـال أحمد:

-أنت بآلامك وأوجاعك وجروحك الملتهبة أكرم عند الله من كل إمام..

-لا تغلط ياأستاذ أحمد! أنا الفقير الجاهل أكرم عند الله من الإمـام! هـذا كلام شيوعيين.. ان الصلاة وراء إمام بمائة صلاة.. والله يقول في كتابه الكريم "لناجعلنا بعضكم فوق بعض درجات"..

-الله عندما تحدث عن الدرجات تحدث عن العلم والتقوى.. الإنسان يفضل غيره بالمعرفة وبمقدار ما يخدم الحق.. ولا يعني أن من يغتني بالربا ونهـب الناس ويستغل جهود المنتجين عنده يستحق رضا الله وثوابه..

-الدرجات تعني أن هناك الغني والفقير..

-ولماذا تكون فقيرا وأنت الذي تعمل وتنتج؟

-لأنني جاهل، هذا ما كتبه لي الله!

-ان الغني الذي يستغلك هو الذي يجعلك جاهلا..

-لا أنا رأسي سميك.. حطني الوالد رحمه الله في الكتّـاب وأنـا صـغير ولكنني كنت أهرب ولذلك لم أتعلم..

-من المحزن أن يكون الإنسان فقيرا جاهلا، ولكن من المحزن أكثـر أن يعتقد بأن الله يريد له ذلك!..

-سيدي، الله يبلونا ليرى أينا أكثر صبرا..

-الجمل صبور انه أصبر منك، انه أصبر من كل إنسان.. لماذا لا تدخلـه فضيلته الجنة؟

-لأنه حيوان..

-وهل يجعلون من العامل أفضل من حيوان صبور حين يعملـون علـى إفقاره وتجويعه وتجهيله؟ ألم يقل عمر بن الخطاب "كاد الفقر أن يكون كفرا"؟

-لاأريد أن تشككني!.. أنا لاأبغي أن أكون فقير الدنيا والآخرة!..

-الله ليس بظالم يا سمعان.. ولكن الإنسان هو الظـالم.. ومـن يغريـك باحتمال الظلم والصبر عليه ليس بناصح لك حين يقول أن وضعك هـو إرادة الله!.. الإسلام ثورة على الظلم، وهذا ما عرفه النبي والمسلمون الأوائل.. لماذا حارب النبي أهل مكة وهم عشيرته؟ لأنهم كانوا سادة العبيد يظلمون عبيدهم.. والنبي أراد أن يحررهم بالإسلام.. حطّم الإسلام الأوثان لأنها كانـت رمـوز السلطة الظالمة.. وقانونها أن يأكل القوي الضعيف.. قـانون الظـالم، قـانون الغاب.. حطّم الإسلام الأوثان لماذا؟ ألأنها حجارة بشعة، حجارة بكماء، أمـن أجلها تسيل الدماء؟ حطمها لأنها رموز لاستعباد الناس، ورفع راية الإسـلام، راية تحريرالمضطهدين والمظلومين والجائعين والجاهلين والظامئين الى العدل، من أجل حرية الإنسان والمساواة أمام الله.. أنت لا تزال تذهب الـى الجـامع وتصلي من أجل هذه الحرية والمساواة، ولكنك نسيت هـذا الـشوق اللاهـب، نسيت هذا الشوق الذي جعل أجدادك يمتشقون سيوفهم ليحرروا العالم من الظلم،

وبقيت لك العادة.. عادة أن تذهب الى الجامع وتصلّي خلف إمام، لأن في هـذا ثوابا.. أنت تشعر هناك أنك متساو أمام الله مع كل إنسان.. ولكن هـل أنـت متساو مع صاحب المصنع في الثروة والحقوق والواجبات؟ هل أنت متساو مع الإقطاعي الذي يستنزف قوتك في الأرض، ولا يترك لك الاّ مايكفيك للبذار؟ أو مع التجار الذين يبيعون ثروات الأرض كأنها هبة السماء لهـم دون سـواهم، وهي ملك الشعب؟ هؤلاء لا يجلسون معك الاّ في الأعياد، وخلفهـم حاشـيتهم ومرتزقتهم، ويلعنون الساعة التي تفرض عليهم هذه الشكليات.. ولكنهم يفعلونها لأنها ستار يخفي نفاقهم ونضوب ايمانهم بالحرية والمساواة.. وحين تذهب الى الجامع لا يسمحون لك باستباقهم، وعندما يصلون يغص بهم المكان وبحاشيتهم، فلا تجد مكانا تصلي فيه الاّ في الباحة خارج الجامع!..

لم يكن من أحد يصغي الى حوار أحمد وسمعان الاّ الأستاذ رزق الله الذي انصرف أهله بعد أن حدثوه بما كان من تدخل مطران الأرثـوذكس لإجـراء العملية التي طال انتظاره لها حتى أشرف على الهلاك، وكان الشاعر مـشغولا بأمه التي أخذت تحدثه عن عدد المرات التي جـاءت بهـا للـسجن لزيارتـه فطردت، وكانت في كل مرة تحمل معها سـلة بـيض، فترجـو الحـارس أن يوصلها لابنها، فنفى الشاعر وصولها، ومرة ثارت أعصابها ورفعت صـوتها على الحارس الجلف فانتزع منها السلة وهشم مافيها من بيض علـى الأرض.. أما البعثي والمحامي فكانا يتبادلان حديثا وديا عن المفارقات التي تجري فـي البلاد، اذ كان كلاهما من أشد الناس حماسا للوحدة حتى اللحظة التي مست فيها مصالحهما، فبدأ تذمرهما وانتقادهما لما يجري في البلاد.. كان البعثي غاضـبا لأن الحكم تخلى عن معونة حزب تقدمي، وما عاد يثق الاّ بكتلة مباحثه لقمـع الناس.. قال:

-كانت الوحدة هدفنا الأساسي.. هي كل ما نملك من بيض في سلتنا بعـد فرط الحزب.. هذا الحكم لن يدوم.. زمن الشيشكلي....! وأخذ يقـص سـيرة الشيشكلي.. وأردف:

-سيدي، الشعب في اللحظات الحاسمة يضع ثقله في الميزان لصالح الحكم أو تحطيمه.. خليهم يتعاونوا مع المباحث.. هي سوريا ما بقي فيها رجال؟

-سيدي، يريدون أن يبتلعونا، بيضة وتقشيرة!

ضحك الشاعر وقال:

-ما بكم لاتجدون الاّ أمثال البيض.. هل وضعتم عيونكم على البيض الذي أحضرته أمي!..

-والله اشتهيناه!

-طبعا عندما نأكل العدس بحصاه شهورا متوالية..

وقالت الأم وهي تضرع لله:

-الله يحفظكم لأهاليكم، وينصركم على أعدائكم.. من عيوني أجيـب لكـم بيض..

-الله يخليك ياخالة لهذا الشاب الجدع.. قليل من أمثاله والله.. بس نبهيه أن لا يعلق مع حموي.. بينكم تارات قديمة أنتم تأكلون الرز وهو يأكل البرغل..

قال الشاعر سليم الكاتب:

-أعرف نكات الحموية عنا نحن الحماصنة، يقولون عنا جـدبان ونقـول عنهم زعران، أما الرز والبرغل سيدي لا أعرفها..

-أنا عشت في صغري في حماه.. والدي كان قاضيا فيها.. كلما ذهبت الى سمان لأشتري أرزا نظر الي شذرا وقال "أليس عيبا أن تأكلوا الأرز؟" فأسـأله "ماذا نأكل اذن؟" فيقول "البرغل أكل الأشراف أما الأرز فأكل الأوبـاش" ولـم أستطع أن أدرك أنا ولا أهلي لماذا يكون الأرز أكل الأوباش، فنحن دمشقية لا

تهضم معدنا البرغل.. ولكنني فهمت السبب حين كبرت.. فالإقطاعيون حـول حماه لا يزرعون الاّ القمح ومشتقاته، والسمان يروج لهم محاصيلهم.. فكان هذا العداء للأرز.. أما اذا كان الحموي دركيا فانه لا يقلب شفتيه كما يفعل السمان، ولكنه يرغمك بالسوط أن تأكل البرغل دون الأرز!..

وضحك من في الغرفة، وخصوصا الضابط البعثي:

-الآن فهمت سبب العداء بيننا وبين المباحث..هم يأكلون البرغل ونحـن لاذقانيون نحب الأرز وخصوصا الصيادية مع السمك!..

كان سمعان الناطور هو الوحيد الذي لم يتذوق النكتة ولم يفهـم معناهـا، وابتسم مجاملة:

-أنتم أيها المثقفون تضحكون لنكتة لا يجد فيها أمثالي ما يضحك..

-يجب أن تدرك العلاقات حتى تبرز لك المفارقات المضحكة..

-وتبكون لأتفه الأسباب.. شاهدت مثقفين لـم يحتملـوا سـوطين علـى ظهورهم فاعترفوا، أنا سمعان الناطور اهترأ جسدي ولم يأخذوا مني حقـا ولا باطلا..

-هل تسمع يا رفيق رزق الله كم كنا مقصرين في حـق هـذا الرجـل.. قصرنا دعوتنا على المثقفين، وتركنا الطبقة الوحيدة التي لهـا مـصلحة فـي التحولات الإجتماعية في جهل مـن قوتهـا، يتجاذبهـا الإخـوان والبعثيـون والناصريون..

-ما بهم البعثيون؟ قال الضابط البعثي وقد استفزه الحديث..

-مع احترامي لشخصك لاتملكون نظرية ولا تملكون خطة عمل، تتجمعون على مدار قطبين متغايرين ينفي أحدهما دورالآخر.. أنت قلت بأنك وضعت كل ما تملك من بيض في هذه الوحدة فماذا كانت النتيجة؟ أنت اليوم في مستـشفى

السجن، ورفاقك في الوزارات لا حول لكم ولا قوة، مجرد دمى يلعب بها الحكم الفردي، وانتهى بكم الأمر لعبادة فرعون طغى!

قال الضابط:

-والله اقترفنا خطيئة كبرى حين وثقنا به! أعطاه الحـزب أسـماء قـوائم الضباط البعثيين وكتب أمام كل إسم صفة صاحبه: طيب أو وسـط أو رديء.. ومنذ الوحدة سرح منا، أو نقل كل ضابط طيب أو وسط وما بقي في الجيش الاّ الأردياء..

-من كتب القوائم؟

-نحن الذين كتبناها.. حفرنا قبورنا ونحن لا ندري.. قال أحمد:

-كيف يعرف الإنسان النتائج سلفا.. التجربة وحدها هي التي تنورنا.. نحن أيضا خدعنا! نحن لم نكن ضد البرجوازية الوطنية، لأن تنميتهـا هـي تنميـة للطبقة العاملة لذلك كنا نقف مع خالد العظم وهو ممثل لهـذه البرجوازيـة ولا نقف مع شكري القوتلي لأنه ممثل للطبقة التجارية المـضطرة بـسبب فقـدان التصنيع أن تفتح أسواق البلد للسلع المستوردة من الخارج.. وقال رزق الله:

-البرجوازية الوطنية في البلاد المتخلفة لن تبقى طويلا وطنيـة وأمامنـا دليل ملموس في مصر، فالبرجوازية التابعة أقوى من الوطنية.. وخلال الوحدة التهمت البرجوازية المصرية التابعة فيها، البرجوازية الوطنية السورية، وتشرد العمال..

* * *

## اعتراف

كلامك صحيح ياأستاذ .. شردونا وأنا رجل عندي سـتة أطفـال، كيـف أعيش؟

وانخرط سمعان الناطور فجأة في البكاء.. كان بكـاؤه عجيبـا غريبـا ذا شهيق، ولم يزده تطييب الخاطر الاّ نحيبا:

-لا أستحق التكريم.. إبصقوا علي.. أنا رجل نذل!..

ولم يستطع أحد أن يفهم طبيعة الإنقلاب الـذي حـدث للرجـل فأخـذوا يهدئونه.. وكفكف دمعه وقال بدون الإنتباه الى التسلسل الزمني في قصته:

-قالوا لي شيوعيين كفار.. تجسس لنا عليهم.. بس كان لازم أفهم أنه إبن كلب اللي حط في ودني هيك.. إبن كلب، لو كان فيه خيرلكان فيه خير لمرته، بنت خاله من لحمه ودمه.. ييجي بنص الليل مخمور يـربط رجلـين مرتـه، ويشوي رجليها بالسوط، ولما تنتفخ وتحمر يهجم عليها متل الكلـب المـسعور ويتلذذ بعضها.. سيدي في عقله لوثة.. زوجته قريبتنا.. عروس أشهر وهربت منه لبيت أهلها عشر مرات.. كل جسمها عض.. خايفين يقيموا عليـه دعـوى طلاق يتبلاّهم متل ما يتبلّى عباد الله.. شافني يوم كمشوني في المظاهرة، قللي يخرب بيتك شو دخلك ببيناتهم؟.. هدي مظاهرة شيوعية.. قلت له منشان الخبز المر والعطالة اللي تسكر منشانها المصنع وانقطع رزقنا.. قال لي أنا بشوف لك شغلة بس بدك تتحمل.. قلت له عندي جسم مثل البغل، كانوا يشغلوني حمال في المصنع.. قال لي لازم نجادك شوي حتى يوثقوا فيك.. إبن الكلب جلـدني ورم ظهري منشان ميتين ليرة.. قلت ميتين ليرة بيعيش فيها الصغار أكبرهم عـشر سنين.. الله يبعث له مين يجلده، بده يهورني صير متله إبن... بس حرام أمـه آدمية مابتستاهل شتيمة.. دايما بتقول لي يا ريتني بقيـت عـاقر ومـا شـفت هالمغضوب.. شغيلة المسكينة، داية بتقوم بنص الليل على رزقها..

وضرب سمعان الناطور الغطاء بقدمه ونهض من فراشه، وسأله أحمد أين يذهب..فقال:

-سيدي أروح بيتي الله ما بيقطع.. أقلي فلافل أبيعها أحسن من المرمطـة وتبلّي الناس..

وأخذ يرتدي ثيابه على عجل واذا بصوت ينادي: "وين سمعان؟ قالوا لـي بهالأوضة"..

ونظر أحمد فاذا بامرأة ملتفة بملاءة مزمومة، ورفعت طرف منديلها عـن وجه غضن نحيل وعينين بالرغم من حولهمـا الخفيـف، مفعمتـين بالطيبـة والحنان..

كان سمعان ملتفتا يرتدي ثيابه، فلما سمع صوتها استدار:

-ميت أهلا خالتي إم عبدالله!

-سمعان يابني كيف صحتك؟ قالوا لي بالمستشفى انشغل بالي عليك! شوف شو جبتلك.. كبة مقلية على ذوقك!..

-هلق كنت في ذكرك يشهد الله..

-خير يابني!

-قلت الوردة بتخاف شوكة!

-أي والله يابني! هيك مقدر علي.. والله مابستاهل.. ياريت انكسرت رجلي وما سعيت له بهالوظيفة!..

-انطريني شوي.. طالع معك.. بس لحظة لشوف المدير قبل ما يروح!

*  *  *